المنســـوجات
فى عهد الخلافة الاسلامية

للدكتور ر . ب . سارجنت

[بقية ماتشر في العدد الماضى]

. وكما كانت بغداد مركز الصناعة ، كانت كذلك مركز الأناقة فى الزى . وفى كتب الأدب العربى كتب وفصول تبحث فى آداب البلاط الملكى وأزياء أهله ، نجد ذلك مثلا فى كتاب اللطائف والمعارف للثعالبى ، كما نجد خير نموذج له فى كتاب الموشى لمؤلفه الوشاء ، وهو يحتوى على قسم خاص بثياب المتأنقين والحلل التى يرتديها ذوو المناصب . فى صفحة ١٢٤ (من الطبعة التى حررها برونوف) يقول : « واعلم أن ثياب ذوى الفضل ، والشجاعة ، وأهل العلم ، تتألف من القمصان الرقيقة والقمضان الغليظة المصنوعة من أنواع فاخرة من الكتان الناعم الصافى الألوان كالدبيقى والجنابى ... ويعد من سوء الرأى ارتداء ثياب ذات ألوان قبيحة مصبوغة بالطيب والزعفران كالملحم الأصفر والدبيقى المضرج بالعنبر ، لأن ذلك لباس النساء ولباس الراقصات والخادمات » . ويصف الوشاء كذلك مايبغى للنساء فى آداب الثياب ، ولعل أفضل ما يوضح لنا كيف أن بغداد كانت عاصمة عالمية فى حياتها هو تلك القوائم التى يذكرها للمنسوجات ، والتى تحتوى على قمصان دارا بجرد فى بلاد فارس ، ومطارف سوس ، وجباب فرس ، والمنسوجات الاسكندرانية والخراسانية ، وعباءات عدن ، والنسج الأرمنى المشهور ، والأحذية الزنجية ، أو اليمنية أو الهندية الواردة من كامباى . وكثيراً ما كانت الثياب تطرز بأنواع شتى من الكتابة العربية . فدواعة هارون الرشيد مثلا كانت محلاة فى أحد جانبيها بكلمة « حاج » ، وفى الجانب الآخر بكلمة « غاز » . على أن هذه العبارات التى كانت تحلى بها الثياب كثيراً ما كانت أبياتاً من الشعر الناطق بالظرف والدعابة كالبيتين التاليين اللذين كانت تحلى بهما عمامتها إحدى الجوارى على ماترويه صاحب كتاب العقد الفريد :

عمت ، وتم الحسن فى وجهها ، فكل شىء ماسواها محال :
للناس فى الشهر هلال ، ولى من وجهها فى كل يوم هلال .

ويمكننا أن نتصور فخامة الأثاث فى بلاط بنى العباس من الثبت الذى ذكره ابن الخطيب المسجوف والطنافس التى شاهدها فى حفل استقبال الخليفة المقتدر لسفير بيزنطة سنة ٣٠٥ هجرية فقد اشتمل ذلك الثبت على مطرزات ذهبية فيها صور جامات ، وفيلة ، وخيول ، وجمال وحيوانات برية ، وطيور ، إلى غير ذلك ، وهو لون من الفن توارثه فنانو العرب واستعملوه فى العهود المختلفة بنجاح عظيم ، وكان يمتزج بهذه الأصناف كلها المنسوجات الصادرة من الصين والهند ورومية ، وهى منسوجات كانت مشهورة عند أهل الشرق الأوسط .

(شكل ٣) قطعة من زخرفة حريرية ترجع إلى العصر الفاطمى حوالى ١٠٠٠ م

ومع أنه ليس من الممكن أن نتناول هنا بالتفصيل ذكر سائر بلاد الخلافة فإن مصر وفارس تخليقتان بذكر خاص . فى مصر تنيس ، ودمياط ، ودبيق ، وعدد آخر لايحصى من البلاد الصغيرة بمنطقة دمياط والأبوانية ، تصنع وتصدر كميات من التيل ؛ بل إن كسوة الكعبة تصنع عادة هناك منذ أيام الخليفة

عمر بن الخطاب ؛ وأنا أعتقد أن القماطى التى كانت تستعمل فى الكسوة كانت فى الحقيقة مصنوعة فى هذه المدن . وكذلك كانت الفيوم مركزاً لنشاط صناعى عظيم ، وكانت تحتوى على عدة مصانع للطراز . وكانت مصر تستورد منسوجات من الخارج. ويمكننا أن نقتبس بهذا الصدد شعر بهاء الدين زهير فى التاجر البغدادى فى القاهرة :

دخلت مصر غنياً — وليس حالى بخافى —
عشرون حمل حرير ، ومثل ذاك نصافى ،
وجملة من لآل وجوهر شفاف .

وكل من النطرون والشب اللذين كان يستعملها الصباغون كان يوجد فى مصر وكانا يصدران إلى أقطار أخرى . ويروى لنا ابن مماتى أنه كان هناك طلب كثير للشب فى برنطة ، وهو يصف لنا إدارة الإحتكار الحكومى لهذه المادة فى القرن السادس الهجرى . وكانت مناجم الشب فى صحراء الصعيد ، وكانت هذه المادة تحمل فى النيل إلى الوجه البحرى ومنه إلى الاسكندرية . وكان النطرون يستخرج طبعاً من وادى النطرون ، كما كان الأمر على عهد قدماء المصريين ؛ وكان النطرون احتكاراً حكومياً كذلك ، ونجد أنه كان يباع فى مدن دمياط وتنيس وأمثالها . وما زال النطرون يستخرج حتى اليوم فى مصر ، وتستغله شركة أسست فى آخر القرن الماضى .

(شكل ٤) قطعة من الحرير المخطط عليها كتابة عربية .

وكانت بلاد فارس شهيرة بمصنوعاتها النسيجية فى عهد الخلافة ، سواء فى ذلك ما كان منها تحت إدارة الحكومة وما كان تحت إدارة الأفراد ، غير أنه بينما ظلت التقاليد الفنية متواصلة بدون انقطاع فى مصر ، كان لفتح المغول لبلاد فارس أثر فى إدخال عدة عوامل جديدة على تلك الصناعة . فلم يكن عمل المغول مقتصراً على تخريبهم عدة مدن قديمة وبعثرتهم للنساجين فى آسيا الوسطى حتى بلاد الصين ، بل إنهم بنوا أو أعادوا إنشاء مدن جديدة هامة جلبوا لها صناعا من سائر أنحاء آسيا والعاملية الصينية . كذلك نقلوا الصناع الصينيين من مكان إلى آخر فى داخلية البلاد الاسلامية . وهناك رسالة من رشيد الدين ، الوزير المشهور للسلطان غازان خان ، يطلب فيها إرسال نساجين من أنطاكية ، وسوس ، وطرسوس ، إلى تبريز إحدى حواضر المغول . ويبدو لى أن التقاليد الفنية الفارسية أصبحت ، منذ تلك الحقبة ، ترداد تميزاً واختلافا عن نظيرتها فى القسم الغربى للثقافة الإسلامية

ولا يتسع لى المقام هنا أن أعرض لمصنوعات مدن البلاد التى تسمى الآن بتونس ، ولا للمنسوجات الأندلسية التى خلفت آثاراً كبيرة فى المنسوجات الأوربية ، ولا لمصنع الطراز فى بلرمو الذى عادت إليه الحياة فيما بعد على يد النورمان الفاتحين . ولعل هذه النظرات فى الصناعة وتقاليد الزى فى العاملية الاسلامية فى أثناء ستة القرون الأولى من حياتها ، تنقل إلى القارىء صورة ما عن تلك الحضارة الثرية المبتكرة التى مازال تراثها فى أوربا باقيا حتى اليوم .

(شكل ٥) قطعة من حرير فيلى يمثل الفروسية يرجع إلى القرن الثامن م .

(عن مجلة الأدب والفن الانكليزية) ر . ب . سارجنت

ظهر اليوم كتاب

مشكلة اللغة العربية

للأستاذ محمد عرفة

يطلب من مجلة الرسالة — ثمن النسخة ٣٠ قرشاً